التحول اللساني

من البنيوية إلى التداولية

الأستاذ: عمر بوقمرة
قسم اللغة العربية – الشلف

لقد كانت اللغة العربية منذ القديم مثار اهتمام الباحثين لا باعتبار ملفوظيتها فحسب، بل وحتى مصدرها ووظيفتها ، وكثير من القضايا ما تزال موضع أخذ ورد قد لا يخلص فيها إلى نتيجة مقنعة ومرضية خاصة تلك القضايا التي اكتسبت طابعا دينيا .

فقد صح في الحديث النبوي الشريف أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم ".رواه البخاري[1]

إن وحدة اللغة الأساسية هي الكلمة المأخوذة من الكلم ، وهو في اللغة الجرح ولعل في هذه التسمية مراعاة للأثر، فالجرح أثر فعل ، والكلمة قد تصيب موضعها الذي يريده لها صاحبها فتحدث فيه أثرا هو أقرب إلى السحر ، ولذلك شغف بعض الناس بالرقى والتعاويذ التي تذهب بقدرة الله الضرر من شتى الأمراض والأسقام العضوية منها

[1] حامد أحمد طاهر : الوصايا النبوية ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ط أولى ، 2005 م ، ص 387 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والروحية ، ونبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ سماه ربه كلمة ، وفي هذه التسمية دليل على الحياة بعد العدم ، وعلى الوجود في غياب السبب المحسوس ،غير

أن هذه الحياة التي اكتسبتها اللغة ظلت عبر الزمن الأول عرضة للزوال بفعل عاملين :

ـ أحدهما خاصية المشافهة .

ـ وثانيهما عامل الزمن الذي يتحول معه الوجود إلى مفقود ، والحاضر إلى غائب ، والدليل على ذلك هو أن كثيرا من الأمم قد حُفظت أسماؤها ولكننا لا نعرف شيئا عن موروثهم العلمي والثقافي ، لأن يد الزمان قد أتت عليه فجعلته نسيا منسيا، لذلك حرص الإنسان على اكتشاف الرموز الكتابية عساه يهرب جزءا من وجوده ويبقى شيئا من كيانه.

ونظرا لأهمية الكتابة فقد عكف علماء الفيلولوجيا إلى عهد قريب على الأثر المكتوب صارفين النظر شبه كليا على اللغة الحية المستعملة ، وفي هذا إهمال كبير لكثير من خصائص اللغة التي لا يمكن اكتشافها من خلال خاصية التلفظ، وبناء على هذا جاءت اللسانيات الغربية لتعيد للغة الشفهية منزلتها ، وهذا شبيه بما قام به الهنود والعرب ، حيث بذلوا جهدا متميزا في الجانب الصوتي لكتبهم المقدسة القرآن الكريم و الفيدا، وذلك لعلمهم أن المكتوب هو تقييد لبعض جوانب الملفوظ وليس كلها .

ولتفي الدراسات اللسانية الحديثة بالمقصود في تحليل اللغة في ظروفها الطبيعية ، ومنظورا في ذلك إلى حال مستعملها وأهدافه التأثيرية ومستقبلها ، ووسائله التأويلية ، وما يتقاسمه الاثنان من آفاق مشتركة قد تساعد أو تعيق عملية التأثير المرجوة ، لذلك ظهر في اللسانيات مجال يعنى بجميع تلك الجوانب ، سميت بالتداولية والتي تعنى بدراسة العملية التواصلية بكل معطياتها ومقتضياتها الحقيقية ، وحتى التوقعية الافتراضية .

لا شك أنه بات من المعلوم في حقل اللسانيات أن تكون المدارس اللسانية الحديثة نشأة هي المدرسة التاريخية ، والتي يعود الفضل في إرساء دعائمها إلى السير **وليام جونز**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

، وذلك بظهور مقطع من خطاب ألقاه على أعضاء الجمعية الملكية الأسيوية في الهند ، وذلك في عام 1786م [1].

وكان مبعث اهتمامه بالدراسة التاريخية للغات بالمد الاستعماري الغربي عموما والإنجليزي خصوصا في شبه القارة الهندية ، وكانت النقطة الهامة في هذا الخطاب هو أن اللغة السنسكريتية ذات قرابة باللغة اللاتينية والإغريقية ،وهذه القرابة
لا يمكن أن تكون من قبيل الصدفة ، ففتح بذلك جونز الباب على فقه اللغة المقارن ، أي الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين لغة الهنود واللغات الأوروبية ومنها الإنجليزية ، مما يبرر صلة القرابة وكون هذه تعود إلى تلك في بعض جوانبها صوتا وتصريفا وتركيبا، ومما دفع هذا الاتجاه اللساني في دراسة اللغات أشواطا ، تأثره بنظرية النشوء والارتقاء لداروين على أساس أن اللغة كائن حي كباقي الكائنات الحية التي تنمو وتتطور ، ورغم هذا فإن هذا التوجه ظل محدودا بحكم توزع اهتماماته ، وعدم تركيزه على لغة واحدة بعينها ، مما جعل نتائجه محدودة ومحصورة في محاولة استظهار خصائص اللغة الذاتية.

جاء فيردينان دي سوسير (1857م - 1913م) فثار على الدراسة التاريخية التي كان من أنصارها في معظم حياته ودعا إلى الدراسة الوصفية الآنية ، وفي هذه الدراسة ميز بين بعض الثنائيات أهمها : اللسان والكلام ، الدال والمدلول ، التوزيع والاستبدال ، التعاقب والتزامن ، وأراد سوسير من هذه الثنائيات أن يصل إلى نتيجة واحدة ، وهي أن المنهج الآني البنيوي موضوعه هو اللغة في ذاتها ، ومن أجل ذاتها فهو يركز على اللغة باعتبارها منظومة من العلامات ، تعد قوانينها المتحكمة فيها مجالا للدراسة انطلاقا من الصوت إلى الصرف فالتركيب .

[1] ينظر : أحمد مومن ، اللسانيات النشأة والتطور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، الجزائر ، 2002م ، ص 66 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد جعلت اللسانيات نصب عينيها في الإطار البنيوي تطور نظرية النص باعتباره منجزا أو عملا مغلقا ، مبتوت الصلة بحيث لا يحيل على شيء خارجي عنه بل إنه من هذا المنظور لا يحيل على شيء خارجي عنه ، بل إنه من هذا المنظور لا يحيل إلا على نفسه وفقط .

وهذا التوجه وإن كان يهتم بالنص فقد جنى على تفهمه التفهم الصحيح والكامل ، وذلك بعدم إشراك إرهاصات الولاة وعوامل النشوء التي تسهم وإلى حد كبير في صحة وسلامة الوصول إلى الدلالة المقصدية التي عناها صاحب النص ، وقد يعجز هذا الأخير عن إيصالها تامة غير منقوصة إلى المتلقي .

إن الإنتاجية الأدبية في التصور البنيوي عبارة عن إنتاجية منسلخة ، وفعل معزول عن المصدر الذي أنتجه، والرحم الذي أخرجه ، فيما يعرف عند البنيويين بموت المؤلف ، الذي نادى كثيرون بتحييده بمجرد أن ينجز النص الذي سرعان ما يتنكر له ، ومن أبرز من عبر عن هذه الفعالية رائد النقد الألسني **بارت** وكان في ذلك متأسيا ومنظرا لما أثاره **ملارمييه** ، إن هذه المصادرة من ناقد كـ (**بارت**)ومن غيره ممن انسلك في النهج البنيوي تعد مخاطرة بقيمة الخطاب في حد ذاته ، ذلك أن وجود المؤلف أو الكتاب أو صاحب الخطاب يعني في ظل الشروط السابقة الذكر وجود عملية تواصل فعالة ، كما يعني كذلك الحد من عبثية النزعة التأويلية ، التي غالبا ما تؤدي إلى اختلاف أفق قد لا يتفق مطلقا مع ما يمكن أن يقوله المخاطب بوصفه طرفا فاعلا في الممارسة السيميائية ، وحضوره مقرر بعقد التواصل ، لذلك نجد (ميشال فوكو) ينتقد بارت فيما يذهب إليه حينما يعتقد بأننا " نخادع أنفسنا ونكتفي بالإعلان فقط ـ أي إعلان موت الكاتب ـ بينما المؤلف يتمتع بصلاحيات وامتيازات الأمر والنهي " [1]

[1] نواري سعودي أبو زيد : الخطاب الأدبي من النشأة إلى التلقي ، مع دراسة تحليلية نموذجية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط أولى ، 2005م ، ص 80 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لاشك أن مقاربة النص الأدبي من هذا المفهوم يحمل من المزالق ما قد يحول دون استنباط الأوجه الحقيقية لمكونات النص ، باعتبار أنه في حقيقة الأمر عملية تواصلية تتكئ على اللغة ، ولكن تتجاوزها إلى أطرافها التداولية ، ومع هذا التوجه ظهر مصطلح جديد للنص ، هو مصطلح الخطاب سيما في النقد ما بعد البنيوية .

يضاف إلى ما سبق من معايب البنوية أنه يصعب مقاربة النصوص المقدسة مقاربة بنيوية ، كما هو الحال بالنسبة لنصوص الوحي من قرآن وحديث نبوي شريف ، ونظرا لتمسكها بالعناصر الداخلية في النص الأدبي تجاوزتها المناهج فيما بعد ، ووجهت إليها انتقادات عدة ، حتى من روادها أنفسهم نحو (رولان بارت)،و (جوناثان كللر) ... وغيرهما " [1].

ومن مساوئ البنيوية أنها تنظر إلى النص وجمله على أنها بنى ثابتة، غير قادرة على الحركة والمناورة ، في حين أنها في الحقيقة عكس ذلك ، يقول مصطفى غلفان : " ينتج عن هذا التصور لتحليل الجملة أن بنية الجملة ليست ثابتة كما يعتقد ذلك في التحليل اللغوي القديم والبنيوي على حد سواء ، إن جملة لها بنية : فعل وفاعل ومفعول تتوفر على حركية ضعيفة ، عكس الجمل التي تبتدئ ببعض الأدوات لتقوية الخبر أو نجد فيها تقديما أو تأخيرا أو ضمير شأن " [2].

ومما سبق نخلص إلى أن القطيعة التامة التي أحدثتها البنيوية بين العلامة اللغوية وغيرها من العلامات غير اللغوية ، هو الذي كان وراء ظهور التداولية التي اضطلعت

---

[1] خليفة بوجادي : خصائص التركيب اللغوي في " بوابات النور " للشاعر الجزائري عبد القادر بن محمد بن القاضي ـ دراسة في الوظيفة التداولية ـ بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في اللغويات ، 2006م ، ص 12 .

[2] مصطفى غلفان : اللسانيات العربية الحديثة ، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ، سلسلة رسائل وأطروحات رقم:4 ، د ـ ت ، ص 253 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بإعادة اللحمة بين البنية النحوية الكامنة في اللغة ، وبين استعمالها في العملية التواصلية كواقع ملموس .

ويرجع مصطلح التداولية بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس حيث استخدمه عام 1938م علما لأحد فروع علم السيمياء الثلاثة وهي :

1 ـ **علم التراكيب :** وهو يعنى بدراسة العلامات بعضها مع بعض .

2 ـ **علم الدلالة :** وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تحيل أو تدل عليها .

3 ـ التداولية : وهي تهتم بدراسة العلامات بمؤوليها ومفسريها [1]، ورغم الإطلاق المبكر لهذا المصطلح من قبل موريس ، فإنه لم يصبح علما قائما بذاته ومجالا من مجالات اللغة الذي يعتد به ويؤبه لها إلا بعد أن أسهم في نموه وتطويره ثلاثة من فلاسفة اللغة الذين ينتمون إلى جامعة أكسفورد وهم : أوستين ، وسيرل ، وجرايس ، وكان هؤلاء الثلاثة جميعا من أنصار مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية أو العادية ، التي تهتم بطريقة توصيل معنى اللغة الطبيعية للإنسان من خلال إبلاغ رسالة ما إلى مرسل إليه يؤولها ، ورغم كل هذا الدفع الذي أعطوه لهذا المجال التداولي ، فإنه لم يستعمل أحد منهم هذا المصطلح في بحوثه ومؤلفاته[2].

وهذا الترتيب الذي اعتمده موريس في هذه الفروع اللغوية الثلاثة ، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة فهو ترتيب ينتقل من الخاص إلى العام ، حيث تتشابك العلامات اللغوية فيما بينها وفق نظامها الخاص بها ، ثم تأتي مرحلة الإحالة على مراجعها ولولا التركيب

[1] ينظر : محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، 2002 م ، ص 9 .

[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص 9 - 10 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لما حدثت إحالة ودلالة ، وهذه الأخيرة تبقى دلالات فضفاضة ، ومعاني واسعة ، حتى إذا انتقلنا بها إلى إطارها التداولي ، حصلت المقصدية وزالت الاحتمالية .

وهذه العلوم الثلاثة هي في الحقيقة ليست مستغنية عن بعضها البعض ، وتشير فرانسواز أرمينكو إلى أن موريس قد توقع ما تؤول إليه الدراسات المقبلة من خصوصية في البحث ، وتمايز في مجالات الدراسة ، وتخصص فروعها " من أجل هذا فإن موريس لا يصر على تداخل العلاقات الخاصة بهذه الأبحاث في السيمياء ، إذ أن الأبحاث تنمو انطلاقا من علم التركيب، فعلم الدلالة ثم التداولية ولا يكفي لأحد هذه العلوم بحسب موريس تحديد مفاهيمه الخاصة ، إذ لا يمكن للتداولية أن تذهب بعيدا من دون أن تأخذ أولا بنظرها البنيات الشكلية ، أي القوانين الخاصة بعلم التركيب ، ويجب عليها أن تبحث ثانيا عن علاقة تداولية، بمعنى أن تقوم أساسا بمعالجة استعمال العلامات ، وأخيرا يجب عليها البحث في علاقة هذه العلامات بموضوعاتها ، أو ما يسمى الجانب الدلالي الموضوعي "[1] .

وكان يرى أصحاب فلسفة اللغة الطبيعية أن المشكل الحقيقي في الفلسفة الحديثة لا يتعلق باللغة من خلال غموض الدلالة والتباس المفهوم وإنما يتعلق الأمر بالاستعمال غير السليم للغة . إن العديد من الأسئلة الفلسفية ناجم عن عدم إدراك طبيعة استعمال اللغة . إن التحليل الفلسفي الصحيح يقتضي وصف الاستعمالات العادية للعبارات اللغوية بدل الاقتصار على مناقشتها مجردة عن تداولها العادي في ظروف ومقامات محددة "[2].

ومن خلال ما سبق فالتداولية لا تنتمي إلى أي مستوى من مستويات البنية اللغوية الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو الدلالية ، وعليه فالأخطاء التداولية لا يمكن أن نعثر

[1] ينظر : غريب اسكندر " الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، 200éم ، ص 17 .

[2] مصطفى غلفان : اللسانيات العربية الحديثة ، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ، مرجع سابق ، ص 246 - 147 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عليها في خروج المتكلم عن قواعد اللغة في أي من المستويات الآنفة الذكر ، فهي تستوعبها جميعا ، لكنها لا تملك وحدات للتحليل أو مستويات للدراسة .

إنه من الصعوبة بمكان الإلمام بتعريف مضبوط ودقيق للتداولية ، وذلك للأسباب التالية :

1 ـ اتساع رقعتها المفهومية بحيث إنها لا تنتمي إلى أي من مستويات اللغوية المعروفة لدى الباحثين ، فهي دراسة فضفاضة تلقي بظلالها على جميع المستويات وليس لها وحدات للتحليل كما مر معنا سابقا .

2 ـ تعتبر التداولية ملتقى لكثير من العلوم ، في حين أنها لا تقف وتستقر عند أحد منها ، فهي تلتقي مع علم الدلالة وعلم اللغة الاجتماعي ، وعلم اللغة النفسي ، وتحليل الخطاب ، يقول محمود أحمد نحلة : " وهي كذلك لا تنضوي تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللغة بالرغم من أنها تتداخل معها في بعض جوانب الدرس "[1].

ويقول (مانقونو) : " إنه من الصعب الحديث عن التداولية ، لأن هذا التعبير يغطيه العديد من التيارات من علوم مختلفة ، تتقاسم عددا من الأفكار ... واللسانيون ليسوا وحدهم المعنيين بالتداولية ، بل يعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطقة وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتواصل ، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني "[2].

ومن العوائق التي تقف في وجه التداولية عدم الاستقرار على مصطلح واحد يجمع أهم مقولاتها ، وكذا مجالاتها " حيث تعددت التسميات العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي

[1] محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق ، ص 10 .

[2] خليفة بوجادي : خصائص التركيب اللغوي في بوابات النور ، مرجع سابق ، ص 32 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(براغماتيك)، فقيل البراغماتية ، والبراغماتيك ، والبراجماتية ، والبراجماتيك ، وليس بين هذه الاصطلاحات فرق بعدّها نقلا حرفيا للكلمة الأجنبية ، وقيل التداولية ، المقامية ، الوظيفية ، السياقية ، الذرائعية ، النفعية ، ... ولكن مصطلح التداولية الذي استخدمه أحمد المتوكل ... هو الذي صار مهيمنا على استعمالات الدارسين " [3].

وتختلف تعريفات التداولية حسب التربة التي نشأت فيها ، فكل باحث يحاول أن يعرفها وفق الجانب المعرفي الذي يعتمده في بحثه ، فتعريف اللغوي يختلف عن تعريف الاجتماعي، وتعريف الأخير يختلف عن تعريف النفساني وهكذا ، ولكن السمة الغالبة التي تجمعهم جميعا تهتم بالتواصل والاستعمال الحقيقي للغة ، فهي إذن تعاريف غير متضاربة بقدر ما هي متفاوتة من حيث العموم والخصوص ، والضبابية ، والوضوح .

وقد عرض محمود أحمد نحلة مجموعة من التعاريف وانتقد بعض جوانبها ، ثم خلص إلى أوجز التعاريف وأقربه إلى القبول فقال : هو دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل لأنه يشير إلى أن المعنى ليس متأصلا في الكلمات وحدها ، ولا يرتبط بالمتكلم وحده ، ولا السامع وحده ،فصناعة المعنى هي تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي ، واجتماعي ، ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما " [1].

ولما كان حقل اللسانيات شديد الاتساع مترامي الأطراف ، فقد ظهرت له فروع تختلف عن بعضها ، مثل التداولية الاجتماعية ، والتي تولي أهمية لشروط الاستعمال اللغوي التي تستنبط من السياق الاجتماعي ، والتداولية اللغوية التي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة تركيبه ، فهي تنحو منحى معاكسا للتداولية الاجتماعية ، بحيث الأولى تنطلق من السياق الاجتماعي صوب التركيب اللغوي ، والثانية تنطلق من التركيب اللغوي إلى السياق الاجتماعي الذي سيق فيه ، وهناك أيضا التداولية التطبيقية وهي تولي عنايتها

---

[3] المرجع نفسه ، ص 33 .

[1] محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 13 - 14 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لمشاكل التواصل ، ومعوقاته في المواقف الاستعمالية المختلفة ، وخاصة عندما يكون في مواقف حساسة وخطيرة النتائج ، كما هو الحال في جلسات القضاء والاستشارات الطبية .[2]

وفي نهاية هذا البحث يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :

ـ إن المنهج التداولي يعد من أنجع المناهج لدراسة وتحليل النص الأدبي بصفة عامة ، والخطاب الحجاجي بصفة خاصة ، لأنه لا يقتصر على النظر في تراكيبه ونظامه اللغوي نظرة وصفية بنيوية ، بل يتعدى ذلك إلى كل الظروف والملابسات المحيطة والمصاحبة لعملية التواصل ، بغية الوقوف على أقرب المعاني له .

فالمنهج الوصفي الذي نادى به سوسير يهتم بدراسة اللغة ، أما المنهج التداولي فهو يهتم بدراسة الكلام .

ـ رغم النشأة المضطربة للمنهج التداولي لتعدد المصادر والمشارب مما أفضى إلى مدونة هائلة من التعريفات والتقسيمات ، فقد أتاح لكل باحث أن يأخذ بالتعريف الذي يخدم بحثه ويتناسب مع موضوعه.

ـ وإذا قلنا إن التداولية تعنى بسياق التواصل ، فهذا لا يعني أنها تتجاوز المسائل الجزئية في بناء النصوص ، بل تنطلق من الخصائص الشكلية لعناصر التركيب كالأفعال اللغوية ، والتراكيب الحجاجية ، والحذف ، والتوكيد والتكرار والقصر ، ثم تبين وظائفها التداولية اعتمادا على المفاهيم التداولية ، وكذا البلاغة والنحو .

[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص 15 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com